



ريتاً عوض

## « أولاد هارتنا » بين الرؤيا والتعبير

وإذا فحل مأساة المجتمع قد يحل في النهاية مأساة الوجود ، او يخففها ، وهي على اي حال تعطي للحياة معنى يستحق ان تعيش من اجله . اما التركيز على مأساة الوجود مع تجاهل مآسي المجتمع فلن يحل مأساة الوجود ، من جهة ، ويحول العالم الى عبث ، وبكاء او ضحك كالبيكاه .

غير اني لم اغفل ابدا مأساة الوجود ، ولعلي ازداد لها انتباهاً (٣) .  
تعتبر السكرية - خاتمة ثلاثية نجيب محفوظ - نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة حملت بين طياتها البذرة التي انبتت معظم ميزات المرحلة الجديدة . ولعل توقف نجيب محفوظ عن التأليف القصصي لمدة ست سنوات تقريبا بعد انتهائه من كتابة السكرية عام ١٩٥٢ يصح دليلاً على انتهاء مرحلة وابتداء أخرى . ولعل ثورة ١٩٥٢ كان لها دور هام في صمت محفوظ هذا . فقد كانت امامه سبعة موضوعات لروايات جديدة في الاتجاه نفسه ، « واذا بثورة ١٩٥٢ تقوم فتמות معها الموضوعات السبعة » . (٤)

ويبدو لي ان صمت محفوظ كان نابعا من ايمانه بان « الادب ثورة على الواقع لا تصوير له » . (٥) لذلك ، حين مات عهد ما قبل الثورة انتفى ، بالنسبة ل محفوظ ، اي مبرر للحديث عن ذلك العهد . ولم يستطع ان يقول شيئاً عن عهد وليد ثم تحدد شخصيته بعد ، فصمت . ولم يعد الى الكتابة الا حين احس بوجود الثورة على الواقع الجديد الذي لم يحقق للانسان عالم اليوتوبيا الذي يتوق اليه ويسمى بالفن لبناؤه . وقد اكد محفوظ نفسه ذلك في قوله : « وانا اعتقد انه لو بلغت الحياة الكمال لما كان للفن من معنى او وجود » . (٦) من هنا كان صمت محفوظ املاً وانتظاراً وشوقاً الى تحقيق ما لا يتحقق في عالم الكون والفساد ، وكانت عودته الى الكتابة سعياً لخلق عالم المثل الذي

« وحدث نفسه مرة اخرى فقال : لماذا لا تعنى بشؤونك الخاصة ، هكذا يقول المأمور ، ولي زوجة محبوبة ورزق موفور ، والحق ان الانسان قد يسعد بما هو زوج او موظف او أب او ابن لكنه مقضي عليه بالمتعاب او بالموت نفسه بما هو انسان ، وسواء اقضى عليه بالسجن هذه المرة ام اطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه في افق حياته . وعاد يتساءل : ماذا يدفني في هذا السبيل الخطير الباهر ؟ الا انه الانسان الكامن في باعماقي ، الانسان الواصي لداته المدرك لموقفه الانساني التاريخي العام ، وان ميزة الانسان على سائر المخلوقات هي انه يستطيع ان يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه . (١) »

بهذه الكلمات التي يضعها نجيب محفوظ على لسان احمد ابراهيم شوكت في نهاية السكرية ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطور الفن القصصي عند محفوظ : الانطلاق من مرحلة القصة الاجتماعية الى مرحلة القصة ذات الابعاد الميتافيزيقية ، حيث تتعدى هموم الانسان مشكلات حياته اليومية ، ويقف امام قدره الاكبر ، الموت ، ليبحث عن معنى الحياة . لكن نجيب محفوظ لا يتجاهل التجربة الاجتماعية في هذه المرحلة الجديدة بل يضيف اليها بعداً ميتافيزيقياً لم يظهر بوضوح في قصصه السابقة . فتفتحو الخاصة الاساسية في هذه المرحلة هي الربط بين مأساة الوجود من ناحية وقضايا الانسان اليومية من ناحية اخرى . وقد وعى محفوظ اهمية هذا الارتباط حين قال :

« ان تفكيرنا في الحياة كوجود يجردنا من كل شيء الا من الوجود والعدم . ولكن تفكيرنا فيها كمجتمع يرينا مآسي كثيرة مفتعلة من صنع الانسان ، كالجهل والفقر والاستعباد والعنف والوحشية الى آخره . وهذا يبرر تأكيدنا على مآسي المجتمع - اذ انها مآسي يمكن معالجتها . ولاننا في معالجتها نخلق الحضارة والتقدم . بل ان التقدم قد يخفف من بلوى المأساة الاصلية وقد يتغلب عليها . وقد قلت ذلك في اولاد هارتنا . قلت ان معالجة الشرور الاجتماعية بالاشتراكية يفرغ الانسان لمعالجة مأساته الاولى وهي الموت ، فاذا انقلب اهل الحرارة - حارة الجبلوي - بفضل توزيع السوقف بالسواوة والمسدل والانسانية اتاحت لهم الفرصة ليكونوا جميعاً سحرة (علماء) (٢) ولهمكفوا على حل مشكلة الموت .

- (٣) غالي شكري ، « مقابلة مع نجيب محفوظ » ، مجلة حوار ، العدد ٣ (٢ آذار ١٩٦٣) ، ص : ٧٣ - ٧٤ .  
(٤) نجيب محفوظ ، « حديث » ، مجلة الكاتب ، العدد ٢٢ (يناير ١٩٦٣) ، ص : ١٧ .  
(٥) نجيب محفوظ ، « حديث » ، مجلة الهلال ، (فبراير ١٩٧٠) ، ص : ٤٢ .  
(٦) احمد محمد عطية ، « حديث مع نجيب محفوظ » ، مجلة الاداب ، العدد ١ (كانون الثاني ١٩٧٠) ، ص : ٢٨ .

- (١) نجيب محفوظ ، السكرية (القاهرة ، لا . ت . ) ، ص : ٢١ .  
(٢) التفسير الخاص للمؤلف . هكذا وردت في النص .

عجز الواقع عن احتوائه . وليس عالم اليوتوبيا الذي يسمى الفنان لتحقيقه مناقضا للواقع او بعيدا عنه ، لان « اليوتوبيا الحديثة تضرب على وتر جديد ، هو وتر الحقيقة ، وتر الحياة اليومية التي نسمى عبثا للهرب منها ... وهي ( اي اليوتوبيا الحديثة ) ، قبل كل شيء ، نقيض وانتقاد » . (٧)

ولعل الاتجاه الميتافيزيقي الذي طبع نتاج المرحلة الجديدة، وظهرت بدوره الاولى قبيل الثورة ، نخمر في فترة الصمت هذه ، وبرز بشكل واضح في نتاج المرحلة الاخيرة حين حاولت الثورة المصرية ان تحل القضايا الاجتماعية ، فاستطاع محفوظ الانطلاق ماورانيا ، وان ظلت القضايا الاجتماعية همه الاكبر . وبذلك اتحد الواقع بما وراء الواقع في هذه المرحلة وظهرت الاسطورة وسيلة للتعبير عن هذا الاتحام . وكان الرمز ، وهو البناء الحسي المطلق ، اداة للتعبير عن رؤيا محفوظ في هذه المرحلة . فمادت اولاد حارتنا ، العمل القصصي الاول لنجيب محفوظ بعد فترة الصمت هذه ، الى الاسطورة ، وهي ذروة البناء الرمزي ، واتخذت منها سبيلا الى احتواء تجربة محفوظ الاجتماعية الماورانية .

ما هي رؤيا نجيب محفوظ الجديدة بعد سنوات الصمت ؟ وكيف عبر عنها ؟

يؤكد نجيب محفوظ في نهاية السكزية قضايا ثلاثا اصبحت فيما بعد محورا ترتكز اليه قصصه في المرحلة التالية وهي : الثورة الابدية ، والتصوف ، والايمان بالعلم . فكيف جمع محفوظ هذه المبادئ الثلاثة التي تبدو متناقضة عرضا ؟ يقول كمال عبد الجواد في نهاية السكزية : « غير انه من المستحسن دائما ان يتامل الانسان ما يراود نفسه من احلام ، على ذلك فالتصوف هروب ، كما ان الايمان السلبي بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ولا بد للعمل من ايمان ، والمسألة هي كيف نخلق لانفسنا ايمانا جديرا بالحياة » . (٨) ويقول كمال في موضع آخر : « وقد تسال ما الحق وما الباطل ، ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والايمان السلبي بالعلم . فهل تستطيع ان تكون مدرسا مثاليا وزوجا مثاليا واثرا ابديا ؟ » (٩) هنا يزول التناقض العرضي ، ويرز الانسجام الداخلي بين الايمان بالعلم والدعوة الى التصوف ، اذ ان الايمان السلبي بالعلم يعادل الايمان السلبي بالله ، وتكون رؤيا محفوظ دعوة الى صوفية جديدة هي الايمان بالعمل المعادل للايمان بالثورة الابدية : « اما الواجب الانساني العام فهو الثورة الابدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الاعلى ... » (١٠)

كانت هذه القضايا التي اصطرت في نفس كمال عبد الجواد هي قضية محفوظ الذي قال ان « كمال يعكس ازمتي الفكرية ، وكانت ازمة جيل فيما اعتقد ، والا فما اكدت عليها بالقوة التي ظهرت بها » . (١١) ولعل هذا القول صحيح الى درجة كبيرة . فقد شغل مفكرو النهضة ، الى حد كبير ، بقضية التوفيق بين الدين والعلم ، كما بحثوا طويلا عن الخط السياسي الذي يستطيع ان ينهض بالامة العربية بعد قرون الجهل والتخلف . وكان محمد عبده من ابرز من تصدى لهذه القضية ، وحاول ان يوفق بين العلم الحديث وتعاليم الدين الاسلامي . لكن تعاليم محمد عبده لم تكن محددة الملامح ، الامر الذي سمح بنشوء تيارات

Lewis Mumford, The Story of Utopias, (٧)  
( New York , 1922 ) , P . 189

(٨) السكزية ، ص : ٢١٤ .

(٩) م . ن . ، ص : ٣١٨ .

(١٠) م . ن . ، ص : ٣١٥ .

(١١) مجلة حوار ، ص : ٦٧ .

متناقضين ادعى كل منهما ارتباطه بمحمد عبده : نادى التيسار الاول باخضاع العلم الحديث لتعاليم الدين الاسلامي وكان رشيد رضا وفريد وجدي من ابرز دعاة ، ودعا التيسار الثاني الى اخضاع الدين لمبادئ العلم الحديث وتان كل من علي عبد الرزاق وفاسم امين وطه حسين من ابرز الداعين اليه . ولعل خالد محمد خالد الذي كتب اشهر مؤلفاته فيبل ثورة ١٩٥٢ لم يخرج كثيرا عن هذا الخط الثاني حين طالب بالاصلاح الانديني سبيلا الى اسعاد الشعب ، ورفض الكهانة التي حملها « وزر تاخر الشعب وجهله » (١٢) في كتابه من هنا . . نبدأ الامر الذي دعا الازهر الى المطالبة بمصادرة انكباب ومحاكمة المؤلف لما في هذا العول من تهجم صريح على الازهر . ولكن خالد محمد خالد ظل يكتب من داخل الايمان الديني ، ولم يدع الى استبدال الدين بالعقل الذي لم يجد بينه وبين التعاليم الدينية من تعارض . فهو يقول مثلا في كتابه « هذا . . او الطوفان » : « ونحن اليوم نرث مجتمعا اختلط صداه بالدين ففكر بهاءه ، امسى الدين فينا بضاعة مزجاة ، نصفه حق ، ونصفه باطل واثايب . فماذا نعمل ؟؟ انزل الدين عنا ونلقي به خارج الاسوار . . ؟ ان مجرد التفكير في هذا لحماقة جليلة . . » (١٣) وبين من ذلك ان هذه القضية ظلت تشغل المفكرين المصريين حتى اوائل الخمسينات وظل الفكر المصري حتى تلك الفترة يدور في الحلقة نفسها وهي التوفيق بين العلم الحديث والدين الاسلامي وان اختلفت النظرة الى اي الاتجاهين اكثر اهمية من الآخر .

وقد شغلت هذه القضية الفكرية نجيب محفوظ في تلك الفترة ، وكان صمته انطوئل الذي نلا السكزية كان مرحلة مخاض عسير عانى فيها القضية فكريا ونفسيا . ولم يباشر كتابه « اولاد حارتنا » (١٤) حتى وصل الى رؤيا جديدة ازاحت آلام الصراع والشك واحلت في نفسه يقينا وايمانا جديدا يواجه به مأساة الحياة . ولعل نجيب محفوظ الفنان استطاع من خلال الرؤيا - التي تتخطى الادراك الفكري - ان يصل الى ما لم يصل اليه المفكرون بالاعمال العقلية والمنطق . وقد وعى نجيب محفوظ اهمية الفن الذي يعطي الحياة للفكرة الفلسفية حين قال : « اما الاديب المفلسف فهو الذي يعبر تعبيرا فنيا عما ياخذ من هذه الفلسفة . وهو يفيد الفلسفة بذلك ، لانه يحولها الى تجربة حية تعيش في النفس البشرية بعد ان كانت معادلة عقلية يختص بها الفلاسفة وتابعوهم » . (١٥) .

كانت رؤيا نجيب محفوظ في اولاد حارتنا اعادة اكتشاف لتاريخ البشرية . فاحتفظ من التاريخ الانساني ذرى خمسا عدها منعطفات مميزة . وكانت حارة الجبلاري خيطا يجمع هذه القصص الخمس التي تدور وفانها في تلك الحارة . وتمثل الحارة الدنيا بأسرها ، ويرمز الجبلاري - الجد الاكبر - الى الخالق .

تبدأ اولاد حارتنا والانسان لم يزل في الجته بعد ، حين يندعو الجبلاري ابناؤه ويسمي ادهم ابن الجارية ، مديرا للوقف ، بديل ان يقع اختياره على اخيه الاكبر ادريس ابن السيدة الشريفة . ويعصى ادريس امر ابيه ويتحدى فراره ، فيكون مصيره الطرد من البيت الكبير . ويتسلم ادهم الوقف ويتزوج اميمة . وتمر الايام هنيئة الى ان يأتي

(١٢) خالد محمد خالد ، من هنا . . نبدأ ، الطبعة الثامنة ( القاهرة ، ١٩٥٤ ) ، ص : ٤٩ .

(١٣) خالد محمد خالد ، هذا . . او الطوفان ، الطبعة الثالثة ( القاهرة ، لا . ت . ) ، ص : ١٥٥ .

(١٤) نشرت مسلسلته في صحيفة الاهرام عام ١٩٥٩ . لكن الازهر منع نشرها في كتاب بعد ان فطن شيوخه الى معانيها واعتبروا انها تمس بالاديان السماوية ، فنشرها محفوظ في « دار الآداب » في بيروت .

(١٥) مجلة حوار ، ص : ٧١ .

ادريس يوما ويطلب من ادهم ان ينظر في حجة الوقف نصيب كل من ابناء الجبلوي من الميراث . وكان الجبلوي فد حذر ابناءه من الاطلاع على الحجة . وينهب ادهم بايعاز من ادريس وتشجيع من اميمة الى غرفة ابيه لينظر في الحجة . وفيما هو بهم بفتح الكتاب الكبير يدخل الجبلوي ويتردد ادهم وزوجه من البيت الكبير . فتكتمل مأساة سقوط الانسان كما عاناها كل من آدم وحواء في الجنة حين وسوس لهما ابليس بتذوق التفاحة المحرمة التي حملتها شجرة المعرفة . فكان التوق الى المعرفة سبب سقوط الانسان الاول . وتبدأ مأساة الانسان، وتكسر سلسلة الآمه ، ويباشر صراعه مع الشر ممثلا في ادريس . وتنجب اميمة توأمين : فدري وهمام . فتكون طبيعة الاول قريبة من طبيعة عمه ادريس ، وطبيعة الثاني قريبة من طبيعة جده الجبلوي الذي يقرر اعادته الى البيت الكبير . فتثور الفيرة في قلب فدري ويقتل اخاه : فتتم مأساة قتل قايين لآخيه هابيل . ويفقد الانسان امله الاخير بالعودة الى فردوسه المفقود ، ويفضي على نفسه بالنفي الابدي من جنة الخلد .

ويعيش الانسان في كل لحظة مأساة سقوطه . ويسعى في حياته الجديدة الى بناء فردوسه المفقود بتحقيق السعادة التي كان ينعم بها في الجنة . لكن ، كيف سارت الحياة خارج اسوار البيت الكبير ؟ وكيف سعى الانسان الى ما كان يحلم به من سعادة ؟ « ولم يجد الناس بدا من ممارسة احقر الاعمال . وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرفوا في البؤس والقدارة وعمد الاقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصنع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، اما الاهالي فتحت اقدام » . ( ١٦ ) وينادي اهل الحارة جدهم الجبلوي . لكنه معتكف في البيت الكبير ، لا يلتفت الى الام ابناؤه . ويؤايم صمته ، وتعذبهم لا مبالاه ، فيفكرون احيانا به ، فيقول جواد مثلا : « لنفعل مثله ، فانه لا يشغل بنا نفسه » ( ص ٢٢١ ) ويقول عويس : « ابن هو جندا ؟ فليخرج الى الحارة ولو محمولا على اعناق خدمه ثم ليحذف شروط وقفه كما يشاء ، ( ص ٢٦٠ ) ويقول زكريا : « وهل هو اذا وثب الفتوات لذبحنا سيحرك ساكننا او يكتوت لما يصيبنا ؟ ( ص ٢٦٠ )

ومع ذلك فاهل الحارة ينتظرون معجزة ويلتفتون الى الجبلوي لتحقيقها . ويرون في الانبياء طريقا الى تحقيق السعادة وخلصا من الظلم الاجتماعي الرابض فوق صدورهم . ويأتي جبل ( النبي موسى ) ويحارب الظلم بالقوة وينتصر عليه الى حين : « وابيضت الايام التالية بأفراح آل حمدان او ان جبل كما باتوا يدعون » ( ص ٢٠١ ) « وترامى الطبل والفناء من بيوت حمدان ، واشرفت انوار الافراح في جبههم » ( ص ٢٠٢ ) لكن هذه السعادة لم تكن سوى حلم قصير ، اذ ارتدت امور الحارة الى اسوأ مما كانت عليه . وجاء رفاعه ( المسيح ) مبشرا بالمحبة وسيلة لتحقيق « السعادة الحقيقية » ، ( ص ٢٦٠ ) فقال : « لا غاية لي الا سعادة اهل حارتنا » ( ص ٢٨١ ) ويعيش اهل الحارة حلما سعيدا لا يلبث ان يزول وتعود الامور اسوأ مما كانت عليه . ويحيى قاسم ( النبي محمد ) فيسعى الى « طريق السعادة الصافية » ( ص ٢٤٤ ) ويجتمع بين رسالتي جبل ورفاعة حين يدعو الى « القوة عند الضرورة والحب في جميع الاحوال » . ( ص ٣٦٤ ) ويعي قاسم ان اولاد الحارة « يحلمون بالسعادة عيشا ثم سرعان ما تلقى الايام بأحلامهم مع النفايات في اكوام الزبالة » ( ص ٣٤٥ ) وهكذا لا يلبث الحلم السعيد الذي حققه قاسم ان يزول ويعود الظلم يعث بمصير ابناء الحارة .

(١٦) نجيب محفوظ ، اولاد حارتنا ، الطبعة الثانية ، ( بيروت

١٩٧٢ ) ص : ١١٧ .

وانتهى عهد النيوان الني اخفقت جميعا في تحقيق فردوس الانسان المفقود على الارض . وقال اهل الحارة « المكتوب مكتوب ، لا جبل اجدى ولا رفاعه ولا قاسم ، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب » ( ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ) و « لم يعد جبل ورفاعة وفاسم الا اسما ، واغاني ينشدتها شعراء انقاضي المسطولون » ( ص ٤٤٨ ) وحاول الانسان ان يبحث عن طريق جديد لتحقيق السعادة فكان عرفة ، وهو العلم ، نبوءة العصر الحديث ، وجاء بقوة « لم يعز عرشا جبل ورفاعة وفاسم مجتمعين » ( ص ٤٧١ ) ويقف عرفة متحديا الجبلوي فيقول : « انا عندي ما ليس عند احد ، ولا الجبلوي نفسه ، عندي السحر ، وهو يستطيع ان يحقق ما عجز عنه جبل ورفاعة وفاسم مجتمعين » ( ص ٤٩٨ ) ويقول عرفة لزوجه عواطف « بضر » حين تحدته عن الجبلوي : « جدنا الواقف ! كل مغلوب على امره يصبح كما صاح المرحوم ابول : « يا جبلوي ! ولكن هل سمعت عن احفاد مثلنا لا يرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المفلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعبت العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا ؟ » ( ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ) .

لكن عرفة كان في المرحلة الاولى من عمله لا يزال يفكر في الجبلوي . ويتجرأ على اقتحام البيت الكبير ليطلع على الكتاب الذي طرد ادهم بسببه ، لانه يعتقد انه « كتاب سحر واعمال الجبلوي في الخلد لا يفسرها الا السحر » ( ص ٤٨٦ ) ويذهب عرفة الى البيت الكبير ويقتل خادم الجبلوي فيموت الجد الاكبر حزنا عليه . ويعود عرفة من رحلته خائبا ، ويندم لانه اقدم عليها ، ويقول : « لكننا علمتني انه لا ينبغي ان نعتمد على شيء سوى السحر الذي بين ايدينا ! الا ترى انني غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربما كانت ابعث ما يكون عن ظني ؟ ! ( ص ٤٩٧ ) .

يؤكد نجيب محفوظ هنا عدم امكان التوفيق بين العلم والدين ، لانهما على طرفي نقيض . ويرى انه يتحتم على كل منهما ان يعمل في مجاله الخاص ، فلا يلقي احدهما وجود الآخر ، لان الانسان في حاجة الى العلم المادي كما انه في حاجة الى روحانية تنطوي على الايمان بقوة عليا يسميها الله ، وان اختلف في تعريفه لهذه القوة عن النبؤات الثلاث . لذلك يندم عرفة لموت الجبلوي ويعلم باعادة الحياة اليه . ويصور له لادعيه خادم الجبلوي تطمئنه ان الجد الاكبر مات وهو راض عنه . وللسبب نفسه يتزوج عرفة من عواطف وهي تمثل ، كما يدل اسمها ، عاطفة الانسان وطاقته الروحانية . وحين يتخلى عن زوجه يصبح عبدا للناظر الكبير ، وعندما يثور على عبوديته يعود اليها ويقرر استخدام علمه لتحقيق سعادة البشرية ، واعادة فردوسها المفقود . ويموت عرفة شهيدا لدعواه كما مات الانبياء . ويحاول الناظر ان يخدر الناس بالحديث عن الجبلوي الذي قتله عرفة . لكن الناس بلغوا مرحلة جديدة من الوعي : « ومن عجب ان تلقى الناس اكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ بهم العناد ان قالوا : لا شان لنا بالماضي ، ولا امل لنا الا في سحر عرفة، ولو خيرنا بين الجبلوي والسحر لاخترنا السحر » . ( ص ٥٥١ ) .

هذه هي رؤيا نجيب محفوظ الجديدة : الايمان بالعلم طريقا الى تحقيق سعادة الانسان وبناء فردوسه المفقود بعد ان كانت النبؤات الدينية ايهاا بالسعادة لا تحقيقا لها . ولا يرفض محفوظ الايمان الديني بل يؤكد خطأ الفكر الذي حاول منذ مطلع ما يسمى بعصر النهضة ان يوفق بين العلم والدين . ويدعو محفوظ الى فصل العلم عن الدين لان كلا منهما يعمل في مجاله الخاص . لكنه يدعو الى الاخذ بالعلم واهمال الدين اذا اضطر الانسان الى الاختيار بينهما . ولا يدعو محفوظ الانسان للتخلي عن انسانيته ، فيوحد بين العلم والعاطفة ، حتى لا يفقد وسيلة للشر : فيستنل الانسان ويحوه عبدا لطامع الحكام الظالمين بدليل ان يكون وسيلة لتحقيق سعادة انسانية .

ما هي السعادة الانسانية كما يراها نجيب محفوظ؟ تتمثل السعادة في التوزيع العادل لربع الوقف حتى لا تزداد اقلية غنية وتزداد الاكثرية المدممة فقرا ، فتستبد الاقلية وتذيق الجماهير الفقيرة النذل والهوان . فالحل هو الاشتراكية او الثورة الادبية كما سماها محفوظ في السكرية . تبدأ قصة البشرية حين سمى الجبالوي ادهم مسؤولا عن الوقف . ويظل الوقف وتوزيع الريح الذي يدره قضيصة الانسان الاولى . فيذهب جبل الى الناظر ويقول له : « جئت مطالبا بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الامنة ! » ( ص ١٨٥ ) وعندما يسترد جبل حقوق بني حمدان في الوقف ويقوم بتوزيعها بالتساوي يعترض دعيبس ، فيرد جبل معارضا : « تريد ان تجعل من الاسرة الواحدة سادة وخرما ! » ( ص ٢٠٥ ) ويأخذ هو ، سيد القوم ، الحصص لنفسها التي اخذها كل من افراد المشيرة . وينتبه رفاة للظلم الاجتماعي مع انه لا يهتم للوقف ، ويقول عندما تحدنه امه عن الرفاهية التي يعيش فيها الفتوة خنفس : « كل هذا الخير من اموال آل جبل المفتسبة » ( ص ٢٣٥ ) ويعمل رفاة على مساعدة الجماهير الفقيرة : « لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم ، انهم يقدرون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه ، وانا ما عرفت الاصدقاء حتى عرفتهم » ( ص ٢٦٧ ) ويأتي قاسم ليعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية وليأخذ نصيب قومه من الوقف ويوزعه بالتساوي على الفقراء . وعندما يلومه معلمه يحيى على الاهتمام بالوقف يقول : « بلى يا معلم ، بالوقف وبالقضاء على الفتونة ، هناك تتحقق الكرامة التي اهداها جبل الى حيه ، والحب الذي دعا اليه رفاة ، بل والسعادة التي حلم بها ادهم » ( ص ٣٦٤ ) ولا يختلف الهدف الذي يسعى اليه عرفة عن هدف الانبياء الاولين وان اختلفت اساليبه . فهو يستخدم العلم كي « يتمكن يوما من القضاء على الفتوات انفسهم . وتشبيد المباني ، وتوفير الرزق لكافة اولاد حارتنا » . ( ص ٤٨٣ ) .

من هنا يتأكد ان اولاد حارتنا تعالج قضية اجتماعية في جوهرها وان اتخذت ابعادا ميتافيزيقية . ويربط محفوظ في اولاد حارتنا ربطا وثيقا بين القضية الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية مع انه يظن الاولى على الثانية من حيث الاهمية ، فيعد النطلع الميتافيزيقي سببا من اسباب التخلف الاجتماعي . يقول حجازي مثلا مخاطبا ابنساء الحارة : « عيبكم انكم تخافون الموت اكثر مما ينبغي ، لذلك سيطر عليكم حشش ، وتسلفن بيومي ، وصادر ايهاب ارزاقكم » ( ص ٢٤٢ ) . ويدور في خلد عرفة وهو مسوق الى حتفه : « فليس ثمة الا الظلام وليس وراء الظلام الا الموت . وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فحسر كل شيء وجاء الموت . الموت الذي يقتل الحياة بالخوف قبل ان يجيء . لو رد الى الحياة لصاح بكل رجل لا تخف . الخوف لا يمنع من الموت لكنه يمنع من الحياة . ولستم يا اهل حارتنا احياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت » ( ص ٥٤٦ ) لكن اولاد الحارة ، وهم غارقون في ماساتهم الاجتماعية ، لا يفكرون بالمساة الوجودية : فهم لا يخافون الموت ، وقد يبلغ بهم الياس والالام مبلغا يتمنون الموت فيه بما هو حل للظلم الاجتماعي ، فتصرخ ام نبوية ببيعة النابت بأعلى صوتها : « قطعت العيشة ويا بخت من كان الموت نصيبه » . ( ص ٥١٧ ) . من هنا كان الناظر قدري اكثر ابناء الحارة اهتماما بالقضايا الميتافيزيقية لانه لا يعاني ظلما اجتماعيا ، لذلك يلتفت غيبيا : « ... الموت ... الموت . دائما الموت يجيء في اية لحظة ، ولاتفه الاسباب او بلا سبب على الاطلاق ... كلنا اموات وانباء اموات » ( ص ٥٣٣ ) اما عرفة فيقلب اهمية القضية الاجتماعية ، بل ويعيد الظلم الاجتماعي سبب المساة الوجودية فيقول : « الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال ... واذا حسنت احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافئته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة ... سيجمع

الناس السحرة ليتوفروا مقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هناك يهدد الموت الموت » ( ص ٥٣٤ - ٥٣٥ ) وبذلك يؤكد محفوظ ان العلم حين يحل القضية الاجتماعية ، يخف من حدة مساة وجود الانسان ، وقد يصل العلم الى حل مساة الانسان الوجودية الاولى : الموت .

عرف كروتشي الفن بأنه حدس وتعبير . ونفى بشدة امكان الفصل بينهما ، فرفض الاعتراف بوجود رؤيا لا يمكن التعبير عنها . وقال انه حين يخفق الفنان في التعبير تكون رؤياه مشوشة او غير مكتملة .

استنادا الى ما قاله كروتشي نطرح السؤال : كيف عبر نجيب محفوظ عن رؤياه في اولاد حارتنا ؟ اعتمد محفوظ في هذه القصة الشكل الاليجوري ، وهو ما يعني بالتشخيص او المماثلة . و « الاليجوري توحى ضمنا بالاستقلال الظاهري للاشياء او الاشخاص في قصة او صورة ، حين تكون ، في الحقيقة ، معتمدة في وجودها على افكار عامة ، ومبادئ اخلاقية ، او بعض الخصائص ، التي توضع معادلة لها . فالاليجوري تنطوي على المعادلة لا على المقارنة » (١٧) من هنا تختص الاليجوري بسيطرة الفكرة على الحركة والصورة ،

الامر الذي يفرض التحكم بالطريقة التي يتوجب على القارئ ان ينظر بها الى عمل فني ما . (١٨) فيصبح العمل الفني محدودا ، ويفقد الفني الناتج عن تعدد الاحتمالات التي يتميز به العمل الرمزي . انطلاقا من هذه الحقيقة يحط كولريديج من قيمة الاليجوري الفنية حين يصفها « بالمحاكاة الجوفاء التي يربطها التوهم كفيما باشباح الاشياء » . (١٩) ويفرق كولريديج بين التاليف التي الصادر عن التوهم ويربطه بالاليجوري والتاليف العضوي الصادر عن الخيال ويربطه بالرمز . وتميل الاليجوري الى التجريد ، بينما يعمل الفن العظيم على تجسيد الحقائق الكلية المجردة ، ليخلق الصورة الكلية المعينية التي عدما هيكل تعريفا للرمز : وهو ذروة الابداع الفني كما يقول النقاد الاديون . كذلك قال يونغ انه « كلما كان الرمز قديما واكثر عمقا ، وبالتالي فسيولوجيا ، وكان جماعيا وكليسا ، كان اكثر « تجسيدا » . وكلما كان مجردا ومميزا ومحددا ، وكانت طبيعته قريبة من الوعي والفردية ، سلخ عن نفسه طبيعته الكلية . حتى اذا بلغ اخيرا الوعي التام ، تعرض لخطر التحول الى مجرد شكل اليجوري لا يمكن ان يتخطى حدود الادراك الواعي ، ويتعرض الى محاولات التفسير المنطقي غير الوافي » . (٢٠) من هنا يقصر الشكل الاليجوري عن بلوغ الرمز ، وان سمى الاشياء بغير اسمائها ، ويقصر عن بلوغ البناء الاسطوري وان حاكى اساطير الالوبس . وقد لاحظ فلتشر العلاقة التي تجمع بين الاليجوري والاسطورة حين قال « ان

(١٧)

Robert Skelton, The Poetic Pattern ( London, 1957 ) P. 93.

(١٨)

Angus Fletcher, Allegory, The Theory of a Symbolic Mod ( New York, 1965 ) P. 304.

(١٩)

M.H. Abrams , The Mirror and the Lamp : Romantic Theory and the Critical Tradition, ( New York, 1958), P. 295.

(٢٠)

C.G. Jung , The Archetypes of the Collective Un - conscions , The Collected works of C.G. Jung , Volume 9 , Part I . tr . R . F . G . Hull ( New York , 1969 ) P. 173

المجيد الى اهمال الاحداث العرضية من روايته ، ليصل الى تكثيف رمزي اكبر ، وليؤكد مطابقة الحدث او الشخصية لدورها في القصة . لكن الحيلة اذا اكتشفت تبدو المطابقة كيفية ، ولا تعود القصة مقنعة » . ( ٢٢ ) من هنا جاء جزء كبير من اولاد حارتنا غير مقنع نفسيا ، لان الاحداث غير مترابطة ولا تنمو نماء طبيعيا داخليا ، وتشكل مجموعة احداث لا يربط بينها سوى عودتها الى قصة اسطورية معينة ، او سعيها الى تأكيد فكرة ما .

ولا يبرر محفوظ سرد احداث معينة تفقد قيمتها وعلو وجودها ، وتخسر القصة انسجامها الداخلي وبالتالي الاقناع النفسي الذي ينتظره القارئ . فنحجب محفوظ يجعل جبلا ابنا للناظر بالتبني مع انه من بني حمدان دون سبب مقنع سوى ان موسى كان ابنا بالتبني لابنة فرعون في الاسطورة . لكن ام موسى وضعت طفلها في سلة قرب نهر النيل وانتظرت ابنة فرعون حتى تأخذه ، لان فرعون قرر قتل اطفال اليهود من الذكور ، الامر الذي يكسب الحادثة معنى . اما الحدث نفسه في اولاد حارتنا فانه مجرد محاكاة فارغة للفروع دون العنصر فكانت النبتة مجرد شكل لا حياة فيه . كذلك وضع محفوظ حادثة الخلاب الذي وقع بين عتريس وكصلها فخلى الاول وفقا عين الثاني كي يفسح المجال لجبل ان يقول : « عين بعين والباديء اظلم » ( ص ٢٠٨ ) وهذا مبدأ قال به موسى واراد محفوظ ان يشته في القصة فافتعل هذه الحادثة . وافتعل مشهدا من اللهو والسكر ليتيح لقاسم ان يقول : « الله يلعن الخمرة وزمانها ! .. تجنبوا الظهور بين الناس وانتم سكارى » ( ص ٢٧١ ) ليؤكد المطابقة بيته وبين محمد الذي حرم الخمرة في الدين الاسلامي . وتضم اولاد حارتنا عددا كبيرا من الاحداث المفتعلة التي لا ترتبط عضويا بالبناء القصصي .

يتبين مما تقدم ان نجيب محفوظ كان صاحب رؤيا جديدة في هذه المرحلة من حياته الادبية لكنه اخفق في التعبير عنها . فلعلنا نستطيع ان نستنتج ان هذه الرؤيا لم تكن قد اتضحت وتبلورت بالنسبة اليه ، فجاء تعبيره مشوشا لم ينضج بعد . وفي رأبي ان هذا الامر طبيعي : فالولاد حارتنا هي التعبير الفني الاول عن الرؤيا الجديدة بعد سنوات الصمت . ومن الصير ان يحسن الفنان رؤياه كاملة مشرفة منذ البداية . لكن محفوظ استطاع ان يقبض على الرؤيا كاملة في قصصه التي تلت اولاد حارتنا فطور تعبيره وبلغ ذرى رمزية رائعة وبناء اسطوريا متكامل فتخطى مرحلة الكد الذهني والمائلة التي عانى منها في اولاد حارتنا حين لم يستطع ان يرى من الرؤيا سوى ظلالها .

بيروت

( ٢٢ )

Edwin Honig, Dark Conceit, the Making of Allegory. ( New York , 1966 ) P . 126 .

## مكتبه انطوان

( فرع شارع الامير بشير )

تقدم لطلاب

جميع الكتب المدرسية  
العربية والفرنسية

الاسطورة والاييجوري هما مرتبتان مختلفتان من عملية رواية نموذج اصلي واحد . فالاسطورة ، كما يبدو لي ، تتعلق عامة بالحلم ، والاييجوري بالمنطق والتفكير » . ( ٢١ ) لذلك كان الفرق شاسعا بين البناء الاسطوري والبناء الاييجوري . فالاول يكتشف الوجود والحقيقة الانسانية بالعودة الى النماذج الاصلية المفروسة في اللاوعي الجماعي وتجسيدها في صور لا يمكن ان « تفسر » لانها لا « تعني » بس « تكون » . بينما تحاكي الاييجوري الاساطير بتفكير عقلي يبحث عن معادل لكل صورة ، فتحكم بذلك على نفسها بالتجريد والمحدودية .

من هنا عانى الشكل الفني لاولاد حارتنا معاناة كبيرة بالتزام نجيب محفوظ بالشكل الاييجوري . فهو وان عاد الى القصص الاسطوري لم يستطع ان يخلق البناء الاسطوري الذي يولد الشخصية - الرمز والحدث - الرمز ، بل حاكي الرموز الاسطورية فجاءت شخصياته صورا فوتوغرافية تحمل سمات الشخصية الاسطورية لكنها جامدة تفنقد الى الحياة . فلم تكن شخصيات اولاد حارتنا حية نامية بل كانت انماط ثابتة تتحرك كي تثبت الفكرة التي تمثلها . من هنا ، « فلو كنا نقابل شخصا اييجوريا في الحياة اليومية ، لقلنا ان فكرة واحدة تستحوذ عليه ، او ان عقله محدود الى ابعد مدى ، او ان حياته مكيفة وفق نموذج صارم من العادات لا يسمح لنفسه بالانحياز عنه » . ( ٢٢ ) لذا لا تعاني الشخصية في القصة الاييجورية صراعا داخليا : كالصراع بين العقل والعاطفة ، او بين رغبات النفس واحكام المجتمع ، او بين الخير والشر . فتكون شخصيات لا انسانية ، وتفقد دمي تحركها فكرة كانت هذه الشخصيات تشخيصا لها . فجل هو النبي موسى الذي جاء بالقوة سبيلا الى تحقيق العدالة . لذلك لا يضعف جبل في اولاد حارتنا بل يعمل محفوظ على ابراز قوته فيختار القصص الديني الذي يبرز قوة موسى ويهمل القصص الذي يبرز ضعفه الانساني ، الامر الذي لم يفعله القصص الديني . فهو في الاسطورة كما صورته التوراة ، مثلا ، انسان وليس فكرة ، لانه يعاني الضعف الانساني ويعصى الله حين يطلب منه ان يكلم قومه متعللا بضعف تعبيره وعدم مقدرته على مواجهة القوم ، ويعترف بضعفه وعجزه . من هنا كان موسى الاسطورة رمزا وانسانا وكان جبل اولاد حارتنا فكرة ودمية . ويصح ذلك على رفاة ، النبي الوديع الذي جاء بالحب طريقا الى تحقيق العدالة . فكانت شخصية رفاة مائعة لا تترك اثرا في النفس . بينما كانت شخصية المسيح الاسطورية ، كما ظهرت في الانجيل ، اروع رمز للصراع بين الالهة والناس . فقد كان المسيح يعاني ضعفا انسانيا رهيبا حين طلب من الله ان يرفع عنه كأس العذاب والموت . ولم يكن وديعا حين طرد الفريسيين من الهيكل بالسوط ، وحين لعن اليهود ووصفهم باولاد الافاعي . كذلك كانت شخصيات اولاد حارتنا جميعا تفنقد الحيوية الانسانية وتعاني برود الفكرة الجردة .

واساء البناء الاييجوري الى الحدث القصصي في اولاد حارتنا . فقد اضطر محفوظ الى حشو احداث ليست من صلب البناء القصصي استمدها الكاتب من القصص الديني ليؤكد ان جبل هو النبي موسى مثلا او قاسم هو النبي محمد . من هنا لم ينم موضوع معين عبر احداث تساعد جميعا على التطور به الى هدف محدد يسعى اليه المؤلف ، بل جاء قسم كبير من الاحداث ليربط بين الشخصية التاريخية والشخصية القصصية . بينما « يسعى كاتب الاييجوري

Fletcher, foot note, PP. 355 - 356.

( ٢١ )

Ibid , P . 40 .

( ٢٢ )